إهداء

إلى أبى:

شئت لى التعليم، وقلت لى ذات يوم: «اقرأ»..

وهذه الصفحات خلاصة قراءات لكل ما تيسَّرَ لى من كتب تتناول سيرة محمد ﷺ، وسِيَر أصحابه، وكل مَنْ سار على هَدْيِه من السلف الصالح.. ممن عودتنى مع إخوتى أن نقتدى بقيمهم منذ الصغر.. لا لأن أجدادنا غرسوا فى نفوسنا أننا ننحدر أصلا من أصلابهم، وأننا جئنا من الأرض التى شَرَّفها الله بنور كتابه الكريم، ولكن لأننا حين تعرَّفنا على رسوله ﷺ وأصحابه وكل من سار على هديه أكْبَرْنَا فيهم كل الفضائل..

وهكذا كنت يا أبى تغرس فى نفوسنا القيم والمبادىء والمثل العليا قبل كل شىء.. فلم تهتم ـ مثلا ـ بتلقيننا أننا أحفاد بكوات أو باشوات بقدر ما كنت تهتم بتذكيرنا أننا أحفاد مَنْ ضحوا وبذلوا، وهان عليهم المال والسلطان والولد فى لحظة تلبية نداء الواجب الوطنى فى الثورة العرابية ليكونوا وقوداً للخونة والمستبدين.

إليكَ يا أبى أهدى هذه الصفحات، راجياً أن تكون صدىً طيباً لما غَرَسْتَهُ فى نفسى ذات يوم من قيم حتى تطمئن روحك فى مثواها الأخير.

ابنك

«سامح»

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب فى طبعته الأولى، أتيح له من التوفيق مالم يتح لكتاب آخر من كتب مؤلفه.. فقد نفدت الطبعة الأولى منه خلال شهور قليلة، وقد أجمع الكاتبون والنقاد أو كادوا يجمعون ـ مشكورين ـ على الرضا عنه، والإعجاب به ولعله ظفر أيضًا بقبول من القارىء العربى.. والدليل نفاد طبعته الأولى خلال أشهر معدودات.

وقد يتساءل القارئ لهذه الطبعة الجديدة عن سبب ذلك.. وأَصْدُقُه القول.. بأن السبب المباشر والأساسى والحقيقى، هو: لقيمة ما تحمله صفحاته من تأريخ لهذه الشخصيات الفذة فى التاريخ الإسلامى، فكل شخصية أمة وحدها، بما تركت من أعمال خالدة لا تزال مراكز العلم والبحث تتناولها بالتأمل والدراسة، وما تركت من مواقف باهرة ضد ما فى حياتنا المعاصرة من عجز وضعف...

هذه الشخصيات كانت بمثابة مناطق الجذب للقارئ العربى. ومعنى هذا أن تاريخنا العربى الإسلامى ينطوى على الكثير الذى يروق القارئ العربى المعاصر، وأن هذه الأعمال والمواقف لتلك الشخصيات استطاعت أن تشد انتباه هذا القارئ، وتصرفه عن وسائل أخرى لتوصيل المعرفة فى قنواتها الميسرة والمتاحة، سواء فى الصحيفة المقروءة، أو الإذاعة المسموعة منها والمرئية وهو دليل جديد يفيد بأن القديم لا يُهجر لأنه قديم، وأن الجديد ينبغى أن يُطلب لأنه جديد، وإنما يهجر القديم إذا برىء من النفع، وخلا من الفائدة. وإذا تحقق ذلك فليس الناس بأقل حاجة إليه منهم لكل جديد. وأن الكتاب لا يزال فى صدارة وسائل توصيل المعرفه بالنسبة للقارئ، بشرط أن يتضمن مادة موثقة، وتناولاً مقبولاً، واخراجا حسنا وطباعة جيدة.

ففى هذا الكتاب كم هائل من الشخصيات تتباين طباعهم وعطاؤهم ما بين

قائد عسكرى، وإمام زاهد، وعالم يملأ طباق الأرض علمًا، وناسكة تملى على الحياة سلوكًا رفيعًا، وشهيد يضرب المثل فى التضحية والفداء، وقاض يرهب بعدله الحكام الضعاف المتخاذلين من صغار الحاكمين، ونحاة يضعون لحياتنا الثقافية أُسُسًا لسلامة لساننا العربى، وجامع أحاديث نبوية يقطع آلاف الأميال بحثًا عن تصحيح حديث يشك فى صحته، ومجدد فى التفكير الإسلامى يؤكد بأن الإسلام دين ودنيا، وحامل رسالة فى الحياة دون تحقيقها الموت. . . . هذا الحشد البالغ خمسًا وسبعين شخصية يربطه خيط رفيع. . هو الإيمان بالحياة المتجددة. . فكرًا راقيًا، وعملا عظيمًا، وموقفًا خالدًا، وسلوكًا نبيلاً. . ليتركوا لنا قدوة نتمثلها فى حياتنا المعاصرة تقول: إن التاريخ يصنعه الأعلام الذين هم القادة للجماهير، وهم العقل المدبر لهذا الطوفان البشرى الهائل، فاعتبروه وتمثلوه، حتى يستفيد حاضركم من ماضيكم فى بناء مستقبلكم.

وإذا كان لمؤلف هذا الكتاب أن يقول كلمة فى مقدمة هذه الطبعة الثانية. فهى الشكر لهذا الاستقبال الحسن من القارئ والناقد والكاتب، مؤكدًا بأنه جهد متواضع أسعفه عون من الله وتوفيقه، لتوضيح بعض ملامح صورة هذه الشخصيات الفذة، بما اشتملت عليه هذه الصورة من أعمال عظيمة، ومواقف خالدة، راجيًا من الله عز وجل أن يكون عند حسن ظن هؤلاء جميعًا فيما يقدم من أعمال.

وإذا كانت هناك كلمة شكر من القارئ أو الناقد أو الكاتب وأيضًا المؤلف فإنما توجه للناشر محمد رشاد صاحب الدار المصرية اللبنانية. كنموذج من الناشرين المثقفين الذين تغلب الأريحية فى شخصياتهم، على المنفعة فى أعمالهم، فينظرون إلى الكتاب على أنه خدمة ثقافية أكثر منه سلعة تجارية، فلا يدخرون جهدًا مستطاعًا فى إخراجه بالصورة التى تليق بما تتضمنه صفحاته من مادة موثقة تدور حول ترسيخ القيم والمبادىء فى حياتنا.

والله أسأل أن يوفقنا جميعًا إلى مافيه الخير

سامح كريمٌ

المعادى ـ نوفمبر ١٩٩٦

مقدمة الطبعة الأولى

فى صحبة مباركة لهذا السلف الصالح، امتدت أكثر من أربع سنوات، كانت هذه الصفحات.. وكم كانت هذه الصحبة مباركة حقاً! وكم كان لها أثر جليل على النفس.. مبعثه هذه العظمة الباهرة لهؤلاء الرجال الذين شرفتُ بصحبتهم وتتبع أخبارهم، والذين صبغوا بأعمالهم الخالدة، ومواقفهم العظيمة تاريخ خَيْر أُمَّة أُخرجت للناس.. تاريخ سطرت صفحاته الأحداث على امتداد أكثر من أربعة عشر قرناً مَن الزمان.

هذه الأعمال، وتلك المواقف، كانت من الضخامة والشموخ إلى درجة أن تصورها البعض ـ أحياناً ـ من قبيل الأساطير، وماهى بأساطير، وإنْ بدت من فرط إعجازها كالأساطير، إلا أنها فى واقع الأمر حقائق جرت بها الأقلام قديماً وحديثاً، لكنْ قد تكون الحقائق أغرب من الخيال أحياناً.

هذه الحقائق التى تضمنتها أعمال ومواقف هذه الشخصيات تسمو وتتألق، لا بِقَدْرِ ما تريد لها هذه الصفحات المتواضعة، أو بقدر ما أراد لها ـ من قبل ـ الكاتبون... بل بِقَدْرِ ما أراده لها أصحابها من بذل وعطاء فى سبيل الله. فوصلت بجهدها المبرور ـ بدون قصد ـ إلى هذا السمو الروحى، وذاك التألق التاريخى. مما جعل هذه الشخصيات تعيش فى وجداننا إلى اليوم.

لقد جاءت هذه الشخصيات الفذة فى يومها الموعود، وأوانها المرتقب لتثرى الحياة، ويساير الناس تطورها المضطرد، وليجعلوا أيامها.. بل شهورها وسنواتها.. لها تاريخ.

* فإذا كانت أيام هذه الحياة تهيب بمن يحافظ على وحدة أبناء الإسلام كما أراد لها رسول الإسلام، وإنقاذه من رجعية مكروهة تُحَوِّل الخلافة الراشدة إلى مُلك

عَضُوض يتوارثه الأبناء عن الآباء. . . وجدنا بين هذه الشخصيات أفذاذاً عملوا وجاهدوا بدم القلب ووهج الفكر، وصلابة الفولاذ، ـ قدر استطاعتهم ـ على إنقاذ وحدة المسلمين من هذه الفتنة التى أخذت برقابهم، إلى درجة أنهم قدَّمُوا حياتهم ثمناً لذلك، وفضلوا الموت والاستشهاد على الجاه والسلطان، بعد أن لاحت في الأفق أول فتنة بين المسلمين بمقتل ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضى الله عنه، حين اخْتَصَم لها فريق، وانتصر لها فريق آخر. ونتج عن هذه الخصومة مالايزال يفرق شمل المسلمين إلى شيع وأحزاب.

لقد أَحْدَثَ مقتل عثمان رضى الله عنه والمصحف بين يديه ـ وقاتلُوه داخل الدار وخارجها ـ صدعاً كبيراً فى جسم الأمة الإسلامية، وكانت المشكلةَ فى كيفية رَأْب هذا الصَّدْع بما يحقق للمسلمين وحدتهم واتفاق كلمتهم. . هى المشكلة الأولَى التى قابلت الإمام علىً بن أبى طالب، كَرَّم الله وجهه، فى أول يوم تَوَلَّى فيه أمور المسلمين أميراً عليهم، حتى أن المسلمين لم يستقبلوا خلافة الإمام الجديد بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان، ومن قبله خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهم أجمعين. . من رضا النفوس، وابتهاج القلوب، واطمئنان الضمائر، واتساع الأمل، وانبساط الرجاء. . وإنما استقبلوا خلافته بكثير من الوجوم والقلق، والإشفاق واضطراب النفوس، واختلاط الأمور، وحيرة العقول. . . لا لأن علياً كرم الله وجهه كان خليقًا بأن يثير فى نفوسهم وقلوبهم شيئاً من هذا، بل لأن ظروف حياة المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان قد اضطرتهم إلى هذا كله اضطرارًا ليس منه بد.

وتمر الأحداث حادة ومثيرة. . فالخلافات مستمرة بين الإمام على كرم الله وجهه وخصومه، وأولهم معاوية بن أبى سفيان، الذى كان يطالب بدم ثالث الخلفاء، وتكون النهاية الحزينة بمقتل رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب، كما قُتلَ ثالثهم من قبل، وتنتهى بمقتله الخلافة الراشدة.

ويتفرق شَمل المسلمين شيعًا وأحزابًا، ليتأسس ملك عضوض، لايقوم على الدين وقيمه، وإنما يقوم على السياسة ومنافعها. . وكان يُظَنُّ حين استقام هذا الملك لمؤسِّسه معاوية بن أبى سفيان عشرين عاما، أنه سيمضى فى طريقه وادعًا

مطمئنًا مستقرًا لأبناءِ أمية دهرًا على أقل تقدير، لكنه لم يستقر فيهم إلاَّ ليتحول عنهم إلى بنى العباس، ولا يتحوّل عنهم فى يُسر ولين.. لأن الفتنة لم تنقض باستشهاد الإمام الحسين بكربلاء، ومن قبله موت أخيه الإمام الحسَن رضى الله عنهما مسمومًا بأيدى معاوية وابنه يزيد. كذلك لم تنقض بموت مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان وخليفته يزيد، بل اشتدت هذه الفتنة حتى عرَّضت المسلمين ودولتهم لخطُوب ومحن ليست أقل جسامة من الخطوب والمحن التى حدثت قبل ذلك.

وفى صفحات هذا الكتاب الذى بين أيدينا نلمح أعمالاً ومواقفَ لشخصيات كانت بمثابة المُثل العليا التى دعا إليها الإسلام... برغم ما سُفِكَ من الدماء، وما أرهق من النفوس، وما انتُهِكَ من الحرمات.

* وإذا كانت هذه الحياة تهيب بمن ينقذ الإسلام من جمودٍ لايقره كتاب الله، وسُنة رسوله ﷺ، بتجديد يواكب حركتها المستمرة، على اعتبار أن التجديد حركة دائمة متصلة ما اتصلت الحياة، التى بطبيعتها متغيرة متجددة تجديداً يحمى الحياة الإسلامية نفسها، حين يجهر بالحق، فيصون المجتمع من الانتكاس، فإننا نجد من بين الشخصيات التى تضمنتها صفحات هذا الكتاب مجددين يتعالون على التعصب، ويرتفعون على التشيع، ويدركون أن الإسلام ـ فى حقيقته ـ ليس نظاماً دينياً فحسب، بل هو نظام سياسى، واقتصادى واجتماعى، وإلاّ فما معنى أن تمتد رقعته من شبه الجزيرة العربية إلى غيرها من الدول والممالك شرقاً وغرباً؟! إن الإسلام ليس عبادة فحسب، بل عمل وجهاد أيضاً.

وإذا كان الإسلام كذلك ـ وهو بالفعل كذلك ـ فلن تكون تعاليمه بمعزل عن التطور، أو مواكبة المجتمعات الجديدة التى انضوت تحت لوائه بعد الفتوحات. حتى ترتكز هذه التعاليم على دعائم تمتد جذورها فى قلب فردٍ يدين بهذا الدين الحنيف، مما يؤدى إلى إقامة علاقة خصبة العناصر الدينية والدنيوية ويعمل على تقاربهما.

فالإسلام دين متطور لايرفض التجديد، بل يراه لازمًا لزوم الحياة نفسها، ومواكبًا لاستمرارها على مسرحها، على اعتبار أنه دين أتى بالقواعد العامة التى

تصلح لكل زمان ومكان. والتجديد يأتى لتنظيم الفروع التى لا تمس جوهر هذه القواعد الإسلامية العامة فى إطار مسئولية التفكير فى صلاح الدنيا والآخرة معاً. . ولا يقتصر الأمر فى هذا الدين على ما يصلح الآخرة وحدها، بل يدخل فيه مايصلح الدنيا أيضاً، حتى يمكن النهوض بالمجتمع الإسلامى على النحو الذى صار عليه الإسلام من دولة تمتد شرقاً وغرباً.

لذلك اتسع الإسلام للتجديد فى كل زمان ومكان. . تجديد يقوم به رجاله المخلصون بنص حديث الرسول ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة عام مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها. . ».

هذا التجديد الذي أقره الإسلام، والذى يعمل على إحياء السنة، وإماتة البدعة، وإحياء ما اندرس. . هو عين ما نلمحه فى هذه الصفحات من جهود عظيمه لنَفَرٍ من المجددين، علماء وفقهاء ومفكرين، حاولوا جاهدين إصلاح الأمة على ضوء ما جاء بالكتاب والسنة.

وإذا كانت هذه الحياة تهيب بمن يعطينا مُثلا طيبة عن التصوف كحركة إيجابية فى الإسلام، أولها تقدير قيمة العمل إلى جانب العبادات، حيث أن هذا الدين لايقر أن يعيش بعض أفراده عالة على الآخرين بدعوى الانصراف التام إلى العبادة، ولا يعترف بما يفعله بعض المنتسبين للطرق الصوفية من ارتداء الهلاهيل بدعوى الزهد فى طيبات الحياة، ولا يقبل إقامة الأضرحة لشيوخ هذه الطرق، وتقديس مريديهم لهم، وتوسلهم بهم فى قضاء حوائجهم، ويرفض سلبية المشاركة فى بناء المجتمع بدعوى الانصراف التام عن هذا العالم المادى، إنما التصوف الحقيقى هو الذى لايقر هذه الصور ولايعترف بها. لأنه فى الأصل قائم على الأصول الإسلامية، وفى مقدمتها القرآن الكريم والسُّنة الشريفة. وهذا الكتاب وهذه السنة لاتقبل الرهبنة. . فلا رهبنة فى الإسلام.

وفى هذه الصفحات شخصيات صوفية تدعو مريديها إلى قيمة العمل، وتحث عليه صراحة، وليس ضمناً، كما ترفض الشَّعْوَذَة والهوس، وترويج الأقاويل حول خوارق الأفعال. وكم كانت لهذه الشخصيات من أعمال إيجابية قائمة على

العلم والإيمان. ومواقف عظيمة باهرة فى وجوه المستبدين من الحكام، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بظلم وقع على الرعية. وكم كان الحكام يرضخون لمطالب هؤلاء الأولياء لأنها فى الأصل قائمة على تذكيرهم بقدرة الله عز وجل، إلى درجة أن هؤلاء الحكام كانوا يخافونهم ويترددون إليهم ابتغاء رضائهم.

هذه الشخصيات الصوفية ـ كُلٌّ فى مكانه ـ يقدم أفعالاً تؤكد بما لايدع مجالاً للشك أن التصرف حين يكون قائماً على أسس إسلامية حقيقية فلا ضرر منه ولا ضِرار، بل يكون له عظيم الأثر فى حياة الناس.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يجاهد فى سبيل الله، لإقامة دعائم الإسلام ونشره، والزَّوْد عنه، فإننا نجد من بين هذه الشخصيات التى اهتم بها هذا الكتاب، رجالاً كان لهم عظيم الأثر فى هذا المجال، سواء فى عصر الخلافة الراشدة، أو فيما تلاه من عصور، مدركين تماماً أن الجهاد فى سبيل الله فريضة من فرائض الإسلام.

ومن هذه الشخصيات الفذة.. مَنْ أسهم بجهود مبرورة فى توسيع رقعة الإسلام لتشمل العديد من الأمم والممالك، حين شارك فى فتوحاته حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً، بعد أن حررتهم هذه الفتوحات الإسلامية من عبودية أباطرة الرومان وقياصرة الفُرس، فنرى نماذج للبطولات التى أسهمت فى تحرير هذه الأمم والممالك من هاتين القوتين العُظْمَيين فى العالم القديم، وخير مثال لذلك تحرير مصر من الرومان، وتحرير الشعوب التى تدور فى فلك فارس من استبداد واستعباد قياصرتها، لتدخل هذه الشعوب تحت مظلة الإسلام.

ولم تتوقف روح الجهاد فى سبيل الله إذا دعت الحاجة إليه فيما تلا عصر الخلافة الراشدة، فنرى نماذج من البطولات فى الجهاد كان لها مواقف جليلة من الصليبيين والتتار، منهم مَنْ كان يقطع مئات وآلاف الأميال من بَلَده مُيَمِّماً جهه شطر واحدة من حواضر الإسلام، تتعرض لعدوان صليبى، أو آخَر تتارى، فيقف إلى جانب إخوته فى الإسلام، يدافع معهم أكثر مما يدافع عنهم، لأنه فى الأصل يعتبر نفسه مجنداً للدفاع عن الإسلام كعقيدة استهدفت لهذا العدوان أوذاك.

ترى أيضاً ـ فى هذا الجانب ـ علماءَ وفقهاءَ أفذاذًا يقومون بالدعوة إلى الجهاد، ولا يقتصر عملهم على مجرد دعوة الناس إلى ذلك، وإنما يمتد عملهم إلى المشاركة الفعلية فى دفع العدوان عن المسلمين ليأخذ مكانه بين المجاهدين كفرد من الأفراد.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يعطينا أمثلة ونماذج طيبة للقضاء العادل، فإننا نجد فى هذه الصفحات قضاة يحكمون بين الناس بالعدل فى مواجهة حكام جائرين مستبدين، مؤكدين مسلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث فصل سلطة القضاء عن سلطة الإدارة، أو ما نعرفه فى نُظمنا الحديثة بالسلطة التنفيذية. فكان عملُ هذا الخليفة ـ فى هذا المجال بالذات ـ سابقاً على عصره، وعلى مدنية أوروبا الحديثة فى الفصل بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية وحكمته فى ذلك أن يُمكِّن القضاء من الحكم بالعدل بين الناس. فيستوى أمامه الحاكم والمحكوم، ولايطغى على سلطته فى الحكم بين الناس حاكم أو أمير.

ولعل الإسلام بهذا العمل الحضارى.. كان سباقاً إلى ما نعرفه اليوم بسيادة القانون. التى يستوى أمامها الحاكم والمحكوم، الغنى والفقير، بلا تمييز أو استثناء، وأساس ذلك ما استحدثه عمر بن الخطاب رضى الله عنه من استحداث الفصل بين السلطة الإدارية والسلطة القضائية. وقد كان جادًا حازماً فى هذا القرار، حتى أنه بدأ بنفسه أيام توليه أمور المسلمين كخليفة لأول الخلفاء أبى بكر رضى الله عنه، ففصل قضاء المدينة عن سلطته، وأقام أبَا الدرداء قاضياً عليها. ثم جعل قضاء الكوفة لشريح، وقضاء البصرة لأبى موسى الأشعرى، وقضاء مصر لقيس ابن أبى العاص السهمى... وكان القاضى فى هذه الأمصار يقوم بجانب الوالى، وله سُلطته القضائية التى لا يتنازل عنها، ولا يتعدى عليه والٍ أو أمير.

وبين هذه الشخصيات التى ذخرت بها صفحات هذا الكتاب نلمح نماذج لقضاة عادلين وقفوا فى وجه الحاكم حين استبد وظلم، ورَدُّوه إلى شرع الله، ليحكموا بينه وبين الرعية بالعدل، وليس عليهم ـ فى حكمهم ـ رقيب سوى ضميرهم الذى يستند إلى كتاب الله وسنة رسوله، حتى أن أحد هؤلاء القضاة ـ وهو القاضى بكَّار بن قتيبة ـ كان يقيم الليل مُتَهَجِّدًا داعياً ألاَّ يكون قد أصدر حُكماً فيه شُبهة

ظُلم لأحد حتى يلقى ربه تقياً نقياً، عابداً تائباً. وغيره أمثلة عظيمة. جسدت القضاء فى الإسلام على أحسن وجه.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يقوم بتجميع أطراف المعارف وإعدادها وتبويبها حتى تنشط حركة التقنين العلمى فى اللغة، والفقه، ونقل ثقافات الآخرين إلى لساننا العربى... نجد من بين شخصيات هذا الكتاب علماء وفقهاء قاموا بإعداد الموسوعات ودوائر المعارف، ولعل هذا الاتجاه إلى تجميع أطراف المعارف. كان من الخطوات الجادة والحاسمة فى تطور العقل الإسلامى وتقدُّمِه على النحو الذى استفاد منه غير اللسان العربى فى نهضته وتطوره.

لقد كانت رسائل إخوان الصفا الشهيرة بمثابة دائرة معارف أشارت مبكراً إلى التنوير من ناحية جمع المعارف وإعدادها وتيسيرها للباحثين والدارسين. وفى هذه الصفحات نلتقى بعلماء ومؤرخين أنفقوا حياتهم فى إعداد تمثل هذه الموسوعات ودوائر المعارف، منهم القلقشندى، صاحب موسوعة صُبح الأَعْشَى. التى لاتزال صفحاتها تقدم الكثير لكل دارسٍ أو باحثٍ، أو راغب فى معرفة.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يقدم مثالاً للمنهج الشامل لرجل الدين، ذلك الذى لا تقتصر صفحاته على علوم الدين، من فقه، وحديث، وتفسير فحسب، وإنما نراه يتجاوز ذلك إلى العلوم المدنية، كالطب، والحساب، والجبر، والمقابلة، وغيرها من علوم حرص أسلافنا من المسلمين الأقدمين على إتقانها، بشكل تأثرت به أوربا فى عصورها الوسطى، حين استعانت بمناهج العرب الشاملة فى نهضتها الحديثة.

ومن بين هذه الشخصيات التى تقدمها صفحات هذا الكتاب مَن كان يهتم بهذا المنهج الشامل لرجل الدين، فنراه يتقن الطب أو الهندسة أو الرياضيات أو الفلسفة إلى جانب إتقانه لعلوم الدين.

ومثل هذا المنهج الشامل مهم بالنسبة لرجل الدين، فإلى جانب إتقانه لعلوم الدين ينبغى أن يكون على بَيِّنَة بقسط من العلوم المدنية، ولعل ذلك كان من الأسباب المهمة فى فكرة جامعة الأزهر التى ضمت إليها الكليات العلمية بجانب

الكليات المعنية بالدين واللغة والأدب، أملاً فى أن يستخدم الأزهر هذا المنهج الشامل الذى عرفه المسلمين الأوائل.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يعطينا أمثلة طيبة لأدب الحوار بين المسلمين، حتى يرجع إلى أدب الإسلام فى الحوار، أولئك الذين ينصبون من أنفسهم أوصياء على عقول الناس، وما تخفى صدورهم، فيلتزم حوارهم بعفة اللسان، ويحرص على صون الكرامة، ويقدمُ حُسنَ الظن بالنية والقصد، ويبعد عن جارح اللفظ وسيء العبارة، عملاً بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ..﴾.. أو منهج القرآن الذى يحمى كلمات الحوار ـ شفاهية أو مكتوبة ـ بقوله: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾.. أو أدب القرآن ـ حتى فى مجادلة أعداء المسلمين من المشركين ـ فى قوله: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

ولعل الصحابة رضوان الله عليهم اتبعوا هَدْىَ الرسول ﷺ فى عِفَّة اللسان، فكانوا نماذج رائعة لأدب الحوار، ولنأخذ مثلا لذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، المعروف بالشدة، حيث كان لايتحيز، ولا يتعصب، ولا يغلظ، ولا يشتد، ولا يعنف أحداً فى عبارة، وإنما كان يتبادل الرأى بالرأى، والحجة بالحجة، ولا يميل إلاَّ إلى جانب الحق فى مودَّة، حتى يقنع مَنْ يجادله برأيه، أو يقتنع هو برأى مَنْ يجادله، حتى ولو كانت امرأة، وهو أمير للمؤمنين.

فى هذه الصفحات نلتقى بشخصيات تقدم نماذج لأدب الحوار، فى مقدمتهم الإمام الليث بن سعد فى حواره مع الإمام مالك فقيه المدينة، وكيف استرسل الحوار بينهما فى رفق ولين، كُلٌّ يوضح وجهة نظره بدون إسراف فى قول يجرح الآخر، وغيرهما من شخصيات مما يؤكد بصورة أو بأخرى أن الإسلام دين يهتم بأدب الحوار، وما فيه من الحفاظ على كرامة الآخرين، وما يتضمنه من عمق في التفكير لايتأتى إلاَّ ممن يثق فى صدق موقفه، فيدافع عنه حتى يقنع به غيره.

* وإذا كانت الحياة تهيب بنصف المجتمع إلى المشاركة فى البناء، فإننا نلمح فى هذه الصفحات نماذج عظيمة للمرأة المسلمة التى تقف جنباً إلى جنب الرجل فى كل ميادين الحياة، فلاتكتفى بوقوفها معه فى ميادين القتال مجاهدة فى سبيل الله لإقامة ونشر دينه فى عصر النبوة، وإنما تقف أيضاً إلى جانب الرجل فى الميدان العلمى، فنراها وقد أدركت من أمر دينها الشىء الكثير، مثل الرجل سواءً بسواء.. نرى نساءً فُضليات اَصَبْنَ من العلم والفقه ورواية الحديث، وحَمَلْن السنة النبوية والأحكام الدينية كما حملها الرجل، وتلقاها عنهن الرجال أنفسهم. نرى شخصيات نسائية عظيمة زخرت كتب الفقه والحديث بمروياتهن، ولم يفرق أحد بينهن وبين الرجال، ولم تكن ثقافتهن مقصورة على روايات الحديث والتفقه فى الدين، وإنما امتدت كذلك إلى الأدب إبداعًا ونقدًا، والسياسة نظرًا وعملاً، والتأريخ تسجيلاً وتعليقاً.

فنرى مثلاً مشاركة المرأة المسلمة بالرأى والمشورة فيما نتبينه من سيرة السيدة زينب وموقفها الباهر، قبل وبعد مأساة كربلاء.. كما نرى إسهام هذه المرأة فى الحركة الأدبية الإبداعية، مما نتبينه من أشعار الصحابية عاتكة بنت زيد، أو إسهام فى الحركة الثقافية نتبينه فى الندوة الأدبية للسيدة سكينة بنت الإمام الحسين، حين التقى بها فحول شعراء العربية فى زمانها، ومنهم الفرزدق، وجرير، وعمر بن أبى ربيعة.. كما التقى بها أيضاً كتاب الأغنية وواضعو ألحانها الجميع يقصدون هذه الندوة ويعرضون إنتاجهم الإبداعى على سيدة هذه الندوة. وهذا جعل نُقاد الأدب ومؤرخيه يعتبرون الندوة الأدبية للسيدة سكينة أول ندوة أدبية فى الإسلام تقيمها امرأة إن لم تكن فى تاريخ الأدب..

كما نرى أمثلة لراويات الحديث تتقدمهن السيدة فاطمة النبوية، التى أعتمد على روايتها ابن إسحاق، وابن هشام فى تسجيلهما للسيرة النبوية التى هى أصل لكل كتابة عن النبى ﷺ وسيرته الشريفة.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يؤرخ للإسلام أحداثه، أو يُؤَصِّل للغة العربية قواعدها، أو يقيم للعلم دوراً نظامية.. فإننا نجد فى هذه الصفحات علماء فى اللغة كانوا بمصر ووصفهم ابن خلدون فى مقدمته بالسَّبْق قبل غيرهم فى هذا

المجال، الذى يحافظ على لغة القرآن ويحكمها بقواعد. . كما نجد مؤرخين كباراً تبقى كتاباتهم سجلاً يرجع إليه الباحثون عن أى عصر من العصور الإسلامية. ونجد علماء آخرين أخذوا على عاتقهم مهمة تأسيس أول دور نظامية للعلم، سواء فى الإسكندرية، أو فى القاهرة خَرَّجتَ عديداً من طلاب العلم ممن كان لهم كبير الأثر فى الحياة العلمية بعد ذلك.

* * *

وغيرهم من الشخصيات ذات الأعمال الخالدة، والمواقف العظيمة، وهم الذين قصدوا مصر وافدين من كل أقطار الدولة الإسلامية. منذ القرن الأول الهجرى، إمَّا طلباً للأمن والأمان، أو رغبة للاستقرار بعيداً عن مناطق الغليان السياسى، أو بحثاً للاستزادة من علم أبنائها. .

ومن الملفت للأنظار أن يكون معظم هذه الشخصيات التى اختارت مصر مكاناً لها، والتى اختصتها صفحات هذا الكتاب بالاهتمام، إمَّا من الصحابة الأجلاء الذين وفدوا إلى مصر مع عمرو بن العاص للمشاركة فى تحرير مصر إبَّان خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأقاموا بها حتى وفاتهم، أو من أبناء وبنات آل البيت الذين وفدوا أيضاً إلى مصر فراراً من عسف واستبداد بنى أمية، ومن بعدهم بنى العباسى، ليستقروا فيها حتى الوفاة. . . مّما يؤكد أن مصر دائماً قبلة العالم العربى والإسلامى، وموطن الحكمة والمعرفة، ومستقر العلم والعلماء، ومنطلق كل حركة إيجابية تُوَجَّه للخير. . كما يؤكد أن مفهوم القومية الضيق الذى عرفناه فى مطلع العصر الحديث، لم يكن معروفا فى العصور الإسلامية الأولى، بل كان مفهوم الوطن العربى الإسلامى هو السائد. ولهذا كان أى عالم أو مفكر أو أديب. . يرحل عن بلده وموطنه الأصلى يجد الترحيب فى أى قُطر آخر من أقطار الأمة الإسلامية، ولا يشعره أهل هذا القطر الوافد عليه بأنه غريب بينهم، بل سرعان ما يصبح من نسيج هذا القطر، ويعتبر مواطناً فيه كسائر المواطنين. وهذا عين ماحدث بالنسبة للشخصيات التى اهتمت بها صفحات هذا الكتاب، والتى وفدت إلى مصر ومن فارس والعراق والجزيرة العربية شرقاً، أو من الأندلس والمغرب وتونس غرباً، واستقروا بها، وأصبحوا مواطنين فيها، وانتسبوا إليها فى

حياتهم ومماتهم، ولم يربطهم بأوطانهم الأصلية سوى مسقط الرأس والنشأة الأولى، وهو ما يؤكد بصورة عامة أن مصر بلد الأمن والأمان، والعلم والمعرفة، والعقيدة والدين.. وهو ما لايتيسر كثيراً فى غيرها من بلاد العالم الإسلامى.

وطبيعى ألا يجمع هذه الشخصيات عصرٌ بعينه، ولامكان محدد أَتَوْا منه. إن ما يجمعهم هدف واحد، هو الإسهام فى إعلاء صَرْح الإسلام بإيمانهم وأعمالهم، وليؤكدوا حقيقة انتهى إليها المؤرخون القدامى، ويؤكدها الكُتَّابُ المحدثون، وهى أن التاريخ الإسلامى متصل الحلقات منذ بدأ حتى اليوم، كما أنه يتميز بخاصية قد تفتقر إليها أحياناً كتابات التاريخ بوجه عام، ألا وهى الصدق فى تحرى الحقائق.. ولعل ذلك يرجع إلى أسباب، أهمها: أن التأريخ للشخصيات الإسلامية قائم على رواية الخلف عن السلف، والمحدثين عن الأقدمين، منذ زمن بعيد، لعله بدأ منذ أن قام الإخباريون المسلمون الأوائل ينقلون منها زاداً كثيراً وصل إلينا.

ولما استوى للمحدثين ماجمعه الأقدمون. جاء دور الشرح والتعليق، مع بقاء هذا التراث الإسلامى ثابتاً غير قابل لجديد فى جوهره، وكل اجتهاد فيه هو فى اختيار طرق العرض والتناول، ولعل ذلك هو ماجعل المحققين والدارسين للسير والتراجم الإسلامية. يقسمون المهتمين بها إلى قريقين:

* فريق عاش فى ظل كتب الأولين يقرؤها ويتأملها، ويجتهد فى شرحها والتعليق عليها، حتى يقربها من أبناء عصره.

* وفريق صبغ أعماله بصبغة أدبية وفنية، ليخرج على الناس بعمل مبدع فى ظاهره له، وفى حقيقته معتمد على غيره.

ولهذا يمكن القول ـ اتفاقاً مع هؤلاء الدراسين والمحققين ـ بأن متناول الشخصيات الإسلامية هو فى الأصل قارىء.. قرأ وتأمل ثم اجتهد فى البحث عن طريقة لعرض وتناول ما قرأ.. وهذا عين ما حدث لى فى تقديم هذه الشخصيات التى تتضمنها الصفحات التالية.

ولعل هذا المنهج فى التناول قد لايجهد الذين يريدون إرجاع مادته القديمة فى

جوهرها وأصلها، الجديدة فى شكلها وعرضها إلى مظانها الأولى. . فى مصادر للمعرفة مثبتة، كمراجع فى آخر الكتاب، أو كآراء يستند إليها فى صلب صفحات الكتاب.

* * *

يبقى بعد ذلك أمران لابد من توضيحهما:

أولهما: أن هذه الصفحات المتواضعة لاتزعم لنفسها القدرة على تقديم العظمة الباهرة لِخَمْسٍ وسبعين شخصية حفلت بهم مادة هذا الكتاب ـ حسبها أن تومئ إلى سماتها وملامحها الأساسية، وتنطلق إلى سمائها وآفاقها.

وثانيهما: أن هذه الصفحات فى مجموعها لا تزعم لنفسها أيضاً بأنها كتاب فى التاريخ بمعناه المتعارف عليه، وإنْ كان التاريخ لُحْمَتُها وسُدَاها، فكتابة التاريخ لها مفهومها وأسلوبها. . وهو بالقطع ليس كتاباً فى الفلسفة ـ وإنْ كان إعْمالُ الفكر فيه نغمة سائدة ـ إذ أن للفلسفة مجالاتها ومناهجها. . ولا هو بالذى يمكن إدراجه فى نوع التراجم والسير ـ وإنْ كانت صفحاته تعنى بتتبع مسار كل شخصية من الميلاد إلى الموت. . ومن بداية التفكير إلى أعلى مستوى له من النضج ـ إذ أن لكتابة الترجمة أو السيرة أسلوبها الخاص الذى يحيط بمختلف المناشط لصاحب السيرة أو الترجمة، ولشتى عناصر مذهبه فى الحياة، ورأيه فى الناس والأشياء.

الأَحْرَى أن أقول: إن هذه الصفحات ـ التى أسعفها عونٌ من الله وفضل ـ لا تَعْدو أن تكون مجرد انطباعات ترسبت فى الذهن نتيجة قراءات امتدت على مدى سنوات، ثم كانت الرغبة فى تسجيلها بشكل يقربها من القارىء المعاصر، خاصة إذا كانت آراء هذه الشخصيات فى كل جوانب الحياة: من فكرية، واجتماعية، وسياسية، وثقافية، واقتصادية، وقبل ذلك كله دينية.

أقول للقارىء الكريم: إن هذه الصفحات لاتعدو أن تكون إشارة إلى هؤلاء الأعلام فى التاريخ الإسلامى إلى أعمالهم ومواقفهم، قيمهم ومبادئهم، مسيرة حياتهم وحقيقة مماتهم. . . وكل ذلك يصلح زاداً روحياً يُتَزَوَّدُ به. والله المستعان.

* * *